جوانب من الحضارة الإسلامية

الدكتور عبد الرحمن علي الحجي

مكتبة الصحوة

بسم الله الرحمن الرحيم

جوانب

من الحضارة الاسلامية

جوانب
من الحضارة الإسلامية

الدكتور عبد الرّحمن علي الحجّي

مكتبة الصحوة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

مكتبة الصحوة
النقرة - شارع بيروت - عمارة الزاحم - مقابل السنترال الجديد
ت : ٢٦١١٠٠٦ - ص.ب : ٣١٢٢ الرمز 32032

الإهداء

إلى من حنا عليّ وربّاني
وتعب لأجلي ورعاني
وما ملكت يداه اعطاني
وأرخص لي كل غالٍ وفداني

إنه أبي العزيز الغالي
أحبني ملء قلبه وجوارحه
وتابع مشيتي بأشواقه وعواطفه
وكنت فخره وعمره

بررته فما كافيته ، فاغفر يا رب تقصيري ، وارحمه واجزه عني بالاحسان ، واجمعني به في بحبوحة الجنان .

فهرس

مقـــدّمة

الحضارة الاسلامية إحدى ثمار العقيدة الاسلامية ومـن معطيات الاسلام ، وهي ميدان متوحد متفرد واسع رائع ثري ندي مزدحم بالنشاط السمح النقي البديع البهي ، مشرق بالنور مزدان بالخير ، تعلو ولا يعلى عليهـا ، ذات سمات ومواصفات متفردة وخصائص مميزة ومقومات تسمو بها شجرة باسقة .

تركت هذه الحضارة الاسلامية في نتاجها ـ خلال مراحلها ـ ظواهر وأمارات ، وحدّت بين نتائج هذه الشجرة وما بذرته خلال القرون في بلدان عالم الاسلام الواسع ؛ بقيت تعطي ثمارها حتى يوم ضعف المسلمون وقل تمسكهم فأهملوا رعاية الشجرة .

وليس من المنهجية الموضوعية ولا الأمانة العلمية دراسة هذه الأمور بشكل تراثي خبراً لكان وأثراً لناظر ؛ لان العقيدة الحيـة حين يتم الأخذ بهـا تبـدو كتيـارٍ متصل لا يتوقف ، ولا تقـوم حضارة رفيعة إنسانية كريمة إلا بهذه العقيدة . وما عرفت الدنيا ـ وهي لا تعرف ـ الانسان المتحرر المتحضر بغيرها ، وإلا فالضياع في الدنيا والهلاك في الآخرة ، اعاذنا الله ونجانا منه . لذا يتوجب على العقل الأخذ بها معرفة بمكانة الانسان وإدراكاً لواجبه وهدفه .

ويجب تناول الحضارة الاسلامية ـ بجانبيها : العلمي المتعدد والعملي المتنوع ـ ودراستها على أساس من العقيدة الاسلاميـة ونتاجها ، ففي ظلها أينعت وبصبغتها الربانية قامت وافصحت . فكانت واحدة متوحدة شاملة واضحة بصفتها ، اسلامية لا قومية فيها ، وانسانية لا وطنية تحدها . فهي ترتبط بالله وتستمد من شرعه ، واليه لا الى الطين تؤول ، وانتاجها والتأليف فيه ـ مع المظاهر الأخرى ـ يعبر عن ذلك قوياً بيناً .

لم يعرف التأليف قومية بل ميدانه العالم الاسلامي كله ، سواء في التراجم العامة أو الطبقات العلمية ؛ إلا إذا اقتصرت على بلد أو مدينة بعينها،وفي هذه الحالة يترجم للذين يدخلونها من المسلمين (من أهل العلم أو طلابه) الذين ارتادوها للزيارة او التجارة اوالعلم دراسة وتدريساً ، ولكل نشاط آخر بعين الاطار . فالذاهب من مكان لآخر في أي من بقاع العالم الاسلامي يدرس في غير بلده ويتولى المناصب فيه . وهذه علامة التوحد في الوجهة والفكرة والتكوين وكلها تقوم على التوحيد . والانتقال سهل لا يشعر صاحبه خلاله بغربة ، فيتولى أحواله ويمارس أعماله كأنه في مكان نشأته ، يرفعه فضله وصلاحه وتقواه ، ويعليه علمه ، يعيش في اي مكان منها معززاً مكرماً محبوباً موصولاً لأنه مسلم . وهذه هي الوحدة الصادقة القوية وعداها زيف خادع وسراب زائل .

الحضارة الاسلامية وحدها تقوم على التوحيد والايمان بالله وكتبه واليوم الآخر،وتتمثل الاخلاق وتنتهج الوضوح والصدق(١). وهي أمور انسلخت منها الحضارات الأخرى فتعرت من الفضائل ـ التي لا تقوم بغير هاتيك المقومات ـ وغدت منها مفلسة . واستمداداً من ذلك فان الحضارة الاسلامية تتحصن بالوحدة والتوحد ، وتتسم بالكمال والشمول والذوق والأناقة ، وتستعلي بالألفة والمحبة والانسجام والوئام والطهر والنظافة والصدق والقوة، وتزهو بالتحرر والحركة والانطلاق الاجتماعي الخيّر في وجهته ، يقودها الى الله التزام بطاعته وأخذ بشريعته .

ولا بد ان يتم ـ في دراسة الحضارة الاسلامية ـ بيان نتاجها والاطلاع عليها بجوانبها كافة واظهار وجوب وامكانية اعادتها أو تكرار تجربتها الفالحة المشروط بالعودة الى ظل العقيدة الاسلامية ، على ان يكتب ذلك كله بأسلوب وعبارات اسلامية معبرة عن المعاني مكونة وعاء طبيعياً لها لا مقحماً عليها .

وبجانب كل انواع النقص العلمي والتشويه لدى بعض الكتاب والباحثين ـ جهلاً أو اساءة ـ فقد تم لديهم تناول دراسة الحضارة الاسلامية في جوانب محددة وبطريقة معينة دون غيرها .

---

(١) انظر : من روائع حضارتنا ، السباعي : ٣٠ وبعدها .

ويجري في هذا البحث اجمالاً تناول بعض الجوانب المهملة المغفلة من الحضارة الاسلامية وذلك في اطارها العام وبرسم هيكل كلي لاعطاء صورة حقيقية تبين طبيعتها ولونها عموماً .

اولاً : الجانب الدبلوماسي (العلاقات الدولية في الاسلام وحضارته) .

ثانياً : الجانب العلمي والثقافي .

ثالثاً : الجانب القضائي .

* * *

أولاً : العلاقات الدولية في الإسلام وحضارته

اهتم الإسلام كثيراً باحترام العهود والمواثيق والالتزام بها ووضع لذلك اصولاً وقواعد • والوفاء بهذه العهود والمواثيق ــ مثل أشياء أخر ضمن الدائرة الاسلامية ــ جزء من العقيدة الاسلامية ، يظل الالتزام بها قائماً ــ مهما كانت الظروف ــ حتى ولو أضر تطبيقها بمصلحة معينة أو أعاق منفعة خاصة • ومن هنا كان التلازم بين النص والتطبيق ، بل دل الثاني على صدق الأخذ بالأول وجديته في نفس صاحبه وأهله •

لم يكن العالم يعرف أو يفهم ــ قبل الاسلام وخارجه على الدوام ــ الخلق العالي وحسن التعامل في السلم والحرب ، غير بقايا من أديان الله السابقة متناثرة مشوهة في اكثرها • فجاء بها الاسلام قولاً وفعلاً ، التزم بذلك المسلمون التزاماً مثالياً ، علا كل اعتبار وسما فوق كافة النوازع النفسية ، قدمه المسلمون في كل مكان وزمان ــ وهم أولى بالقدوة ــ لغيرهم ؛ في وقت غدا

الاعتداء والنهب وقتل المغلوب لدى الكثير ـ قبل مجيء النور وخارج عالمه بعده ـ دستوراً معترفاً به ، حتى بعدما رأوا مُثُل الخير العملية لم يزدهم ذلك إلا افتراساً واتهاباً ووحشية وجبناً وصغاراً •

بل ان من الدارسين الاوربيين من دافع عن هذه الوحشية ـ بعد ما أسس الاسلام المثل العملية ـ معتبرين إياها دستوراً ، ومنهم من افتخر بهذه الوحشية [1] • جرى ذلك حين التعرض لأحداث بشعة في عديد من بلدان العالم الاسلامي منها الأندلس في مدينة بَرْبشتر[2] (٤٥٦ هـ) وحين عاث الطاغية القمبيطور في مدينة بَلَنسية[3] (٤٨٧ هـ) •

وهذا دليل على أن المثل العليا لاتكون إلا بالاسلام ولاتسود بغير اعتناقه ، ولا ضمان لها بغير الالتزام الايماني والخوف من الله والحب فيه والتصديق بدعوته •

---

(١) التاريخ الاندلسي مــن الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة : ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ، ٣٧٤ •

(٢) التاريخ الاندلسي : ٣٥٩ ـ ٣٦٦ •

(٣) التاريخ الاندلسي : ٣٦٩ ـ ٣٨٧ •

ولقد احتوى التاريخ الاسلامي الكثير من العهود والمواثيق، سواء كانت بين الكيان الاسلامي (دار الاسلام) وغيره (دار الحرب) من الدول المجاورة أو البعيدة ، أو مع مجموعات غير اسلامية داخل الكيان الاسلامي .

ومن أوائل المناشط الاسلامية في شؤون العلاقات الدولية الدبلوماسية ما حدث خلال هجرة بعض المسلمين ـ في العهد المكي ـ إلى الحبشة في السنة السابعة قبل الهجرة (السادسة للبعثة النبوية الشريفة) . فجرت مكاتبات بين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وبين النجاشي ملك الحبشة الذي كانت علاقته مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والمسلمين حسنة ، رغم عدم وجود كيان اسلامي مستقل وواضح سياسياً .

وحين هاجر المسلمون من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وأقاموا أول دولة اسلامية في العالم ، أنشأوا عهوداً ومواثيق بين الجماعة المسلمة والجماعات الأخرى مثل اليهود والمشركين من أهل المدينة (١) .

---

(١) راجع : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة .

وكان صلح الحديبية واحداً من هذه المعاهدات التي جرت في العهد النبوي الشريف في السنة السادسة للهجرة بين المسلمين ومشركي مكة ــ التي ما زالت في قبضة الشرك ــ بزعامة قريش. وكان رئيس مفاوضي قريش سهيل بن عمرو الذي أصبح فيما بعد من خيار المسلمين ودعاة الاسلام واستشهد في معركة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة للهجرة [1] .

إننا نلاحظ في معاهدة (الحديبية) الأهمية التي جعلها الاسلام للمواثيق والعهود والالتزام بها واحترام الكلمة حتى غير المكتوبة . احتوت معاهدة صلح الحديبية على عدة فقرات منها : « أنه من أتى محمداً (صلى الله عليه وسلم) من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يردوه عليه » [2] .

وما أن تمت المفاوضات في صلح الحديبية ، وقبل الانتهاء من كتابة العهد ، حتى ألقى أبو جندل ــ ابن كبير مفاوضي قريش

(١) الاستيعاب في معرفة الاصحاب : ٦٧٢/٢ ، ١٠٨٤/٣ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية : ٥٨ ، كذلك : جامع الاصول في احاديث الرسول : ٢٩١/٨ .

سهيل بن عمرو ـ بنفسه أمام الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وصحابته ، يرسف في قيوده • كان مسلماً مستضعفاً لم يستطع الهجرة ، حبسه أبوه وقيده في البيت، يلقى ألوان العذاب• ووجد في غياب أبيه فرصة للالتحاق بالمسلمين • لكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رده على أبيه قائلاً : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً واعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم »[1] •

أما الوفاء بالعهد فذلك في الاسلام واضح ومؤكد ، والأمثلة وفيرة وهي فريدة تسمو على الانانية وتلتزم بأعلى المثل،فالالتزام بها أساس في كافة الاتفاقيات والعهود • كما أكد الاسلام احترام عروض السلم وتلبيتها مالم تكن فيها مخالفة للشرع واضرار بمصلحة الاسلام وأهله •

وقد كان وفاء المسلمين بالعهد وهم في موقف القوة والقدرة وليس في موقف الضعف ، وهنا تبرز أهمية هذا الوفاء • فنرى

(١) السيرة النبوية : ٣ـ٤/٣١٨ . كذلك: امتاع الاسماع: ١/٢٩٥ .

ـ مثلاً ـ أن الخليفة الاندلسي عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) عقد معاهدة سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٧ م) مع بعض دول اسبانيا النصرانية (الشمالية) ثم نقضت هذه المعاهدة واعتدي على حدود الدولة الاسلامية في الاندلس ، فجهز الخليفة جيشاً قاده بنفسه إلى الشمال لمواجهة هذه التحرشات ، وكان بامكانه سحق المعتدين الذين لما رأوا هذه القوة ومدى اصرار الخليفة فضلوا العودة إلى المعاهدة ، فاكتفى الناصر بذلك[1] . وحين حضرت سفارة من الشمال لطلب السلم استجاب الناصرلرغباتهم.

يحبب الاسلام ويؤيد كل عهد يدعو إلى الخير والمصالحة والسلام ما دام مخلصاً . ويستمر مفعول الالتزام بالعهد في كل الحالات من غير تقديم المبررات ، لأن الاسلام ارتفع بالمسلم والدولة المسلمة عن أن تهبط إلى مستوى الغدر ونقض العهد الذي هو من صفات الكفرة ، وارتقى بالبشرية إلى آفاق رحيبة من الصدق والاستقامة والرفعة وعدم تنكب هذا الطريق طمعاً بالغلبة ، فظهرها من هذا الخلق هدفاً ووسيلة ، على ضوء ما يوحيه

---

(١) راجع اندلسيات : ٢/٧٥.

كتاب الله . فتكون هذه الأخلاق النبيلة مستمدة من شرع الله متجهة إلى مرضاته سائرة على صراطه . فلا يجوز للدولة المسلمة اعلان الحرب على أحد له معها عهد أو اتفاق، وليس لها العذر باعلان الحرب عليه أو مباغتته إلا في حالة يظهر فيها الغدر منهم، ولكن بعد أن يكون الطرف الآخر على علم بالحالة الجديدة ، تنبؤ بها الدولة الاسلامية ، وغير ذلك ممنوع في الشريعة الاسلامية ((إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ .))(1)

فالعلاقات في الاسلام تقوم على الصدق والوضوح وإعطاء الفرصة للعدو دون مراوغة . وليس مبدأ الغاية تبرر الواسطة وأساليب البراعة في اللعب والخروج من كل قيد حين تلوح فائدة ، وطرائق تبرير الأخطاء وتزويق السقطات وتزوير الحقائق ؛ إلا

---

(1) سورة الانفال : الآيات ٥٥ ــ ٥٨ .

حليفاً للشرك والكفر والنفاق . فأهله حلساء هذه الخلق الذي اعتمدته السياسات والأساليب غير الاسلامية في العصر الحاضر – والغابر – واعتبروا ذلك شجاعة وبراعة ، وما هو إلا خلقية جاهلية حاربها الاسلام وغرس مكانها أخلاقه النزيهة النظيفة وجعلها عقيدة، إذ أن طابع الخلق الاسلامي الطهر والانصاف حتى مع العدو . وصفة التعامل الاسلامي – في السلم والحرب – حسن معاملة وسماح انسانية ورفق حنون ووفاء بالعهد والتزام بالكلمة وارتفاع لخلق طاهر نظيف في آفاق رحبة رسمتها شريعة الله فاجتذبت الناس – من كل قوم وجنس ودين – إلى دين الله الخالد ، فدخلوه أفواجاً وأصبحوا في الله إخواناً « وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ » (١)

وكل هذه المثل العليا لا توجدها أي حضارة مادية مهما حازت من التقدم الصناعي والتكدس الانتاجي والكشف العلمي، بل كل تلك الأمور تتحول فيها إلى أداة تدمير للانسان وخراب

---

(١) سورة الانفال : الآية ٦٣ .

للعمران مالم ترس السفينة في شاطىء الأمان القائم على شريعة الله ، فتكون عندها فقط أداة سماحة وتقدم وسلام ، ويتحقق هذا حين يقود الاسلام ركب البشرية مرة أخرى .

ولدينا أمثلة عجيبة الروعة نادرة المثال في تاريخ العلاقات في كل حال وذات ألوان حتى تجاه غير المسلمين الذين فضلوا حكم المسلمين على أبناء دينهم وبلدهم . فحين وصل الجيش الاسلامي إلى وادي الأردن بقيادة أمين هذه الأمة أبي عبيدة بن الجراح كتب أهالي تلك البلاد إلى المسلمين يقولون : « يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا »[1] .

إن أساس العلاقات الدبلوماسية في الاسلام السعي للسلم النظيف الشريف المكين الأمين . وحين يمارس الاسلام حرباً فلأجل السلم ونشر دعوته الخيّرة وليس للاسترقاق أو للكسب وفتح الأسواق وجمع الغنائم واستعباد الناس وفرض مذهب معين عليهم،

---

(١) فتوح الشام : ١١١ .

أو أية مصلحة أخرى كما تفعل المبادىء الوضعية وراء البحار وخلف السهوب ، والبراري والصحاري ، والجبال والوديان ، حتى عمّ شرها أماكن كثيرة ؛ وأرهقت الناس وملأت الأرض طغياناً وكفراً على حساب المثل والقيم التي غرسها الاسلام ورعاها المسلمون وحرصوا دوماً على تطبيقها ، وما صور التمييز العنصري وغيره عنا بغائبة . فالاسلام يكره الحرب ، لكنه يمارسها يوم يكون لا مفر منها وقاية وعلاجاً ، حماية ودفاعاً ودعوة إلهية . يقول الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ؛ فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »[1] .

تقام الحرب في الاسلام ـ بجانب الحماية ورد الاعتداء ـ من أجل نشر كلمة الله ؛ لا للاجبار عليها بل من أجل فتح الطريق أمامها وإزالة العوائق من طريقها والعقبات التي تقف حاجزاً دون ابلاغها للناس الذين يترك لهم الخيار خلال الفتوحات الاسلامية .

---

(١) جامع الأصول : ٥٦٨/٢ . كذلك رياض الصالحين : ٣٧ (حديث رقم : ٥٣) .

وأي قتال لا يهدف إلى إعلاء كلمة الله فهو ليس في سبيل الله ويرفضه الاسلام ، ولقد قال الله تعالى في قرآنه الكريم :

« ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ »[1] . « ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ »[2]

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدة روايات : أن اعرابياً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ويقاتل ليذكر ويقاتل ليرى مكانه ويقاتل حمية ، فمن في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[3] .

وكل حرب تقام لغير هذا لا يؤيدها الاسلام ويعتبرها عدواناً ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٣) جامع الأصول : ٥٨١/٢ ، كذلك رياض الصالحين : ٧ (حديث رقم : ٨) .

لأنه يحث على إقامة السلم . يوضح ذلك قول الله تعالى في القرآن الكريم : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »[1] ، وقوله جل ذكره : « وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ »[2]

ومن أعراف المسلمين في الحرب مقاتلة المحاربين في الميدان ، فهم لا يجهزون على جريح ولا يمثلون بقتيل ولا يسيئون إلى أسير ولا يتعرضون لمسالم ولا يلحقون فاراً إذ ليس الهدف القضاء عليه بل إزالة خطره . لقد منع الاسلام مقاتلة غير المحاربين، ومنع الاعتداء على النساء والشيوخ والأطفال والرهبان ، ومنع القيام بأعمال الأذى والنهب والسلب وحرق الزروع وقطع الأشجار رغم وجود حالة الحرب[3] .

جاء الاسلام بهذه الأمور ابتداءً وسمواً ، وبهذا المستوى أصالة وجدية، بصدق ووضوح، وعفة وشرف، وبتفوق كبير بعيد

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٨ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٦١ .

(٣) جامع الأصول : ٢/٥٨٩ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٦٥١ .

لا يدرك،في زمن لم تكن هذه الأمور فيه معروفة وما كان تصورها قائماً فضلاً عن تطبيقها ، وهي ما تزال كذلك حتى اليوم مع اختلاف في الجزئيات وفي الوسائل ، لكن العالم الاسلامي ومن احتك به شاهدها عياناً وتنعم بها •

* * *

أما السفارات والسفراء ففي الاسلام لذلك مكانه ، وأعرافه ورسومه رائقة فائقة سامية • فسفراء الدول الأجنبية في الدولة الاسلامية يتمتعون بكل ما يعرف بالحصانة الدبلوماسية وبشكل حقيقي غير مزور ولا مدبج ، بل نالوا كل كرم وضيافة وحسن استقبال وغير ذلك من الخدمات الأخرى بلا امتهان ، وتهيأت لهم كل أسباب الراحة ، بل وكان يرافقهم من يسهر على راحتهم وأمورهم ؛ ومترجم ــ إن دعت الحاجة ــ رغم ما قد تفتقده من هذه الأمور الوفود الاسلامية التي تزور تلك الدول • في حين حدث لدى دول أخرى ذات هيبة سياسية في مختلف العصور أنها كانت تقوم ليس فقط بحرمان وفود المسلمين من هذه المزايا بل أحياناً الاعتداء على السفراء المسلمين ، مع الالتواء في

أداء حوائجهم ، وسوء معاملتهم ؛ لدرجة وصلوا معها إلى حد قتل السفير المسلم دونما سبب غير الحقد والكراهية .

فحين حمل الحارث بن عمير الازدي كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمير بصرى عاصمة الغساسنة إحدى ولايات الروم « فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدم فضربت عنقه صبراً »(١) وبسبب ذلك كانت معركة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة . ولقد أهين عبد الله بن حذافة السهمي سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى امبراطور فارس كسرى ابرويز ليدعوه إلى الاسلام فمزق الكتاب ؛ لكن الله تعالى مزق ملكه وقُتل بيد ابنه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حين بلغه ما فعل هذا الكسرى بالكتاب وحامله دعا عليه بقوله : « اللهم مزق ملكه »(٢) فكان ، وتلك إحدى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم .

إن صيانة وإكرام الوفود القادمة إلى البلاد الاسلامية صفة

---

(١) الاستيعاب : ١/٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

(٢) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ١/٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، كذلك : مجموعة الوثائق السياسية ١٠٩ ـ ١١٢ .

واضحة خلال مراحل التاريخ يوم كانت الكلمة للاسلام ، وكان ذلك يتم في كل الظروف والمناسبات ، والأمثلة متضافرة تمتلىء بها صفحات التاريخ . ومن أمثلة ما جرى في القرون التاليةماحدث حين جاء وفد من المانيا ارسله امبراطورها اوتو الأول ، فقدم هذا الوفد إلى قرطبة أيام الخليفة الاندلسي عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠ ــ ٣٥٠ هـ = ٩١٢ ــ ٩٦١ م) وكان رئيس الوفد الالماني الراهب يوحنا الغرزيني وأنزل الوفد في مكان قريب من إحدى الكنائس في قرطبة [١] .

كل هذا كان يتم دون فرض أو اشتراك أو تبادل ومن غير توفر قانون أو عرف دولي ولكنها الصبغة الاسلامية وخلقها الرفيع .

وكم أغنت مثل هذه العهود والمواثيق لدى غير المسلمين في الماضي والحاضر ! التي اتخذت أحياناً ستراً خفيفاً لإخفاء خطة ذات أهداف عدوانية استغلالية .

ألم يتم في عصر الحضارة الحديثة ــ ذات الحتميات والتقدميات

---

(١) اندلسيات : ٤٩/١ .

والديمقراطيات ــ أن يُستدعى وفد للتفاوض من قبل جهات دولية متحضرة لتنسف به طائرته أو مركبته أو يعتقل ؟ وكم من عهود نقضت واستغل ضعف المعاهدين ؛ مثلما جرى في الماضي لـدى غير المسلمين في تعاملهم مع المسلمين الذين أحسنوا إليهم وسبقت لهم معهم بيض الأيادي ؟ ويكفي في ذلك اطلاع سريع على الحروب الصليبية في أي من جناحي العالم الاسلامي شرقيه وغربيه[1] .

لقد كان الاهتمام في العالم الاسلامي بالعهود والوفود ظاهراً في كل أمر يتعلق بهذا الموضوع ؛ حتى لقد أنشئت دور تسكنها هذه الوفود الزائرة ، وقد توفرت فيها كل أسباب الراحة ، زيادة إلى تعيين أشخاص يصاحبونها في شؤونها . كما كان الاستقبال يتم خلال طريقهم في المدن التي يمرون بها [2] . وكان السفير المسلم ــ بجانب تقواه ــ عالي الثقافة عموماً ومعروفاً بعلمه وفقهه ، وإن كان الفقه شاملاً لكل المسلمين ذكوراً وإناثاً ، وهذا هو أساس الثقافة في المجتمع المسلم . وقد يكون السفير أحد العلماء المرموقين المعروفين بعمقهم وانتاجهم الغزير .

---

(١) التاريخ الأندلسي : ٣٤٣ ، ٣٦١ ، ٥٥٣ .

(٢) راجع : اندلسيات : ١/٤٢ ـ ٥٣ .

إن دراسة الجانب الدبلوماسي أمر صعب ويحتاج إلى تتبع وتحقيق وتمحيص للمواقف والحقائق ، وعودة إلى المراجع والمخطوطات الأولية والحديثة والإحاطة بعدة لغات . ولهذه الدراسة الدبلوماسية جانبان هما : الجانب الفني والجانب التاريخي (١) .

يتعلق الجانب الفني بالأصول والأعراف والرسوم التي قامت عليها أساليب الوفود والسفارات والتفاوض بين الجانب الاسلامي وبين الآخرين . وهذا الجانب أصعب ربما من بعض النواحي من الجانب التاريخي الذي هو بدوره يثير الصعوبات المتعددة .

قامت العلاقات عند المسلمين على أسس الاسلام الواضحة الصادقة ، فهي إحدى ثمراته . ولقد توفرت عن الجانب الدبلوماسي نصوص ودراسات ، ولكن يبقى الجانب الفني بحاجة أشد إلى الجهد والانتاج . ويفتقر الجانب التاريخي كذلك إلى النصوص الكافية وتكتنفه صعوبة الاستنتاج أحياناً .

فمثلاً نعرف في الجانب التاريخي أخباراً عن معاهدات

---

(١) راجع مثلا : اندلسيات : ١/٤٢ ــ ٥٣ .

قامت بين المسلمين وبين غيرهم لم تصل إلينا نصوصها . وتواجه الباحث في هذه الحالة صعوبة تعيقه عن اعطاء صورة سليمة أقرب إلى الواقع . وهناك احداث ذكرت بصورة سريعة موجزة : من ذلك سفارة قدمت من البابا أيام عبد الرحمن الناصر إلى قرطبة فاستقبلها الخليفة أحسن استقبال ، لكنا لا نعرف شيئاً عن أهداف هذه السفارة التي جاءت من أجلها غير طلب الصداقة . وورد ذكر هذه السفارة في عبر ابن خلدون حين الحديث عن هذا الخليفة الاندلسي ،ولم يورد عنها غير أقل من سطر وهو : « ووصل بعده (رسول برشلونة) رسول صاحب رومة يطلب المودة فأجيب »[1] .

ولدينا في الدبلوماسية نص فريد غير كامل ومحير عن هذا الرجل الذي كان يتولى مهمة سفارية ولا نعرف غير لقبه ، وهو نص وحيد ذكره ابن القوطية في كتابه « تاريخ افتتاح الاندلس » حين الحديث عن الأمير عبد الرحمن الاوسط (٢٠٦ ــ ٢٣٨هـ): « وذلك ان رجلاً يعرف بالقصبي كانت له وجهة وكان يوفده

---

(١) العبر : ٣١١/٤ .

عبد الرحمن بن الحكم الى قارله ملك الافرنجة والى ملك الروم »[1] . يشير بذلك الى رجل كانت له دراية وخبرة ومران بالعمل الدبلوماسي ، حيث تعود عبد الرحمن الاوسط ان يوليه سفارات خارج الاندلس لدى عدد من الدول مثل الافرنجة والروم . ولم يذكر ابن القوطية اسم ملوك الافرنجة أو الروم الذين قام هذا النشاط في حكمهم ، وكل ذلك يحتاج الى تتبع وتحديد . وان مصطلح الروم والافرنج لم يكن ذا مدلول واضح ومحدد دوما تحديداً متعارفاً عليه أو في وضع ثابت في كل العصور وعند كل الكتاب المسلمين ، وقد يكون كل من المصطلحين (الافرنجة والروم) عاما يطلق على شعوب أوربا ودولها كلها أو بعضها [2] . وتواجه البحث في هذا الموضوع صعوبات متنوعة حيث لا نجد عنها تفصيلات في مصادر أخرى مما هو متوفر لدينا . وابن القوطية مثلا في هذا النص لم يعطنا الاسم

---

(١) راجع هذا الموضوع في رسالة الدكتوراه (العلاقات الدبلوماسية) ١٣١ ـ ١٣٢ للمؤلف .

(٢) المرجع السابق : ١١٩ ، ٢٤٧ ، ٢٧٢ ، التاريخ الأندلسي : ١٨٤ ، ١٨٦ .

الكامل للسفير واكتفى باللقب من غير ان يحدد الدولة أو الملك الذي واجهه هذا السفير .

وهناك مشكلة قلة المعلومات عن هذه الامور ليس في الاندلس فقط ولكن بالنسبة للجهة الاخرى التي تعاملت مع الاندلس أو غيره احيانا من بلدان العالم الاسلامي . ومثل هذه الاخبار التي لدينا عنها نص وحيد كثيرة ، ومن هذا النوع من النصوص كذلك ما يرويه ابن خلدون حيث يقول : « ثم جاء رسول ملك ... وآخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق وهو يومئذ كَلْدَهْ »[1] . فكم يستطيع الباحث ان يجد من المعلومات في مثل هذا الخبر أو كيف يمكن رسم صورة لهذا النشاط السفاري وأمثاله . وهذا النص شبيه بما ذكره ابن خلدون عن رسول « آخر من ملك الفرنجة وراء المغرب وهو يومئذ أقْوُهْ »[2] . والتحقيق في مثل هذا الموضوع يقتضي الاطلاع على التاريخ الاندلسي والاوربي وغيره الذي كان طرفا آخر في هذا النشاط ، مع معرفة ببعض اللغات .

---

(١) العلاقات الدبلوماسية : ١٣٣ .

(٢) العلاقات الدبلوماسية : ١٣٤ .

ولدينا نصوص أخرى قد ترد في مصدر واحد ولا ذكر لها في غيره الا ما ندر لدرجة لا يتضح أحيانا مرسل الخطاب أو الذين تبادلوا الرسائل . من ذلك نص المقري في نفح الطيب حين الحديث عن عبد الرحمن الداخل (١٣٨ ــ ١٧٢ هـ) الذي عقدت بينه وبين ملك الفرنج (قارْلُهْ = شارلمان) معاهدة سلم . فغير واضح مَن الذي اخذ المبادرة ولا نعرف تفصيلات اخرى عن هذا النشاط المتبادل، وعبارته « وخاطب عبد الرحمن قَارْلُهْ ملك الافرنج وكان من طغاة الافرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المكسر تام الرجولية فمال معه الى المداراة ودعاه الى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة »(١) .

ويبدو ان للمؤرخين المسلمين، والاندلسيين خاصة، مؤلفات استوفت ــ ولو الى حد ــ مثل هذه الأمور ولكن لم تصل الينا لتحل هذه المشكلات وغيرها . ولكن فيما يتعلق بالعديد من الامور الدبلوماسية ، لاسيما في الجانب التاريخي فان المقَّري

(١) التاريخ الأندلسي : ٢٢٦ ، ولعل هذا النص نقله المقري في نفحه (نفح الطيب ١/٣٣٠ ــ ٣٣١) من ابن حيان القرطبي (٤٦٩ هـ) مؤرخ الأندلس .

يتحفنا بما يتعلق بهذا الموضوع في الأندلس وينقل أصولاً تاريخية فُقدت ويذكر نصوصا مطولة عما يتعلق بهذه الاخبار • وقد ينقل ــ عن ابن حيان الذي اهتم بهذا الموضوع وغيره [١] ــ وَصْفَ الاحتفالات الدبلوماسية بشكل جيد مع تفصيلات أخرى بالامكان ان تعطي صورة واضحة ، وهذا الوصف الذي كان يعطيه لمثل هذه المناسبات يرد تحت الجانب الاول : الفني •

ولقد عاش المجتمع الاسلامي بكل عصوره وأحواله موضوع العهود وحسن التعامل مع الآخرين على اساس خلقي صريح وصادق • وكل ذلك مرتبط بالعقيدة الاسلامية والخوف من الله تعالى • وترسخت هذه الصفة وغيرها حتى غدت وبدت اخلاقية أصيلة تميز بها المجتمع المسلم وجربها وأقر بها كل أولئك الذين تعاملوا مع المجتمع المسلم • وهي مثل غيرها صفة بديهية وأولية ملموسة ؛ فالوفاء بالعهد خلق اسلامي أصيل ، فكان الوفاء لهم سنة بها يلتزمون وعليها يحرصون •

بل لدينا من الامثلة الفذة في قوتها الفريدة في روعتها ،

---

(١) التاريخ الأندلسي : ٢٦٧ .

وبعضها لا يخلو من طرافة ، وهي متكررة مألوفة لم تذهب الايام بإشراقها ولم تندرس لطول العهد بها .

لم يشهد الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان وابوه (حُسَيْل) بدراً رغم وجودهما في المدينة المنورة ، وذلك انهما كانا مقبلين اليها فلقيهما كفار قريش واخذوهما ، فقالوا لهما : « انكم تريدون محمداً » فقالا : « ما نريد الا المدينة » فأخذوا العهد عليهما ان ينصرفا الى المدينة ولا يقاتلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ضد كفار قريش . فذهبا الى المدينة وأخبرا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بذلك فقال لهما : « نفي بعهدهم ونستعين الله عليهم »[1] . وهكذا أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم العهد لقريش مع أنهم أعداء الله ورسوله ، والحرب معهم قائمة ، والمسلمون بحاجة ماسة لكل جندي ؛ نظراً للتفاوت الكبير بين قوتي الطرفين ؛ وهم قادمون على معركة بدر التي تعتبر أول وقعة فاصلة بين الكفر والايمان !! ولقد روى مسلم هذا الخبر في صحيحه عن حذيفة بن

---

(١) سير اعلام النبلاء ، الذهبي : ٢٦٢/٢ .

اليمان قال : « ما منعني ان اشهد بدراً الا أني خرجت أنا وأبي حسيل ، فأخذنا كفار قريش ، قالوا : انكم تريدون محمداً ، فقلنا : ما نريده ، ما نريد الا المدينة ، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لننصرفن الى المدينة ، ولا نقاتل معه ، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر ، فقال : انصرفا ، نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم »[1] ومن غير شك أن هذا الالتزام لا يصدر إلا عن ينبوع إيماني وعقيدة راسخة في النفوس تعتبر الوفاء بالعهد جزءاً من تلك العقيدة والالتزام به عبادة لله سبحانه وتعالى . وقوة هذه الحادثة وامثالها تغني كثيرا عن الشرح والبيان ، انه الوفاء المثالي الذي لا يكون الا بالاسلام ؛ فهذا خلق العقيدة وسلوك التقوى ومنهج الايمان . وهذه الأمور وأمثالها لا تكون بغير هذه العقيدة وشريعتها الربانية ، وذلك واضح مما نسمع ونرى .

ولقد أجارت ــ يوم فتح مكة ــ أم هانىء بنت أبي طالب (ابنة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم) رجلاً مشركاً هو

---

(١) مختصر صحيح مسلم : ٥٨/٢ (رقم : ١١٢٥) ؛ جامع الأصول ٢١٣/٨ .

الحارث بن هشام بن المغيرة وآمنته ، وأراد علي بن ابي طالب (اخوهـا) قتله ، فجاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « يا رسول الله زعم ابن أمي علي انه قاتل رجلاً قد أجرته فلان بن هبيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء (وآمنا من آمنت) »[1] .

ولهذه الحادثة عند الحاكم النيسابوري (٤٠٥ هـ) تتمة وايضاح حيث يذكر ان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا لرجلين أجارتهما أم هانىء هما : الحارث بن هشام (المذكور) وعبد الله بن أبي ربيعة اللذين أخبرتهما بأمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضيا باقيين على شركهما ، ثم ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهما جالسان في ناديهما متنضلين في الملأ المزعفرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا سبيل اليهما قد آمناهما » . وقال الحارث بن هشام : وجعلت استحيي ان يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم واذكر رؤيته إياي في كل موطن مع المشركين

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر : ٢٧٣/٦ .
والزيادة من أبي داود ، جامع الأصول : ٦٥٤/٢ ــ ٦٥٥ .
كذلك : سير اعلام النبلاء : ٢٢٨/٢ ؛ الاستيعاب : ٣٠٢/١ .

ثم اذكر بره ورحمته فألقاه وهو داخل المسجد فتلقاني بالبشر ، ووقف حتى جئته فسلمت عليه وشهدت شهادة الحق • فقال : « الحمد لله الذي هداك ، ما كان مثلك يجهل الاسلام » • قال الحارث : فوالله ما رأيت مثل الاسلام جُهِل [1] •

ولقد روى أبو داود عن ابي رافع قوله : (بعثتني قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أُلقي في قلبي الاسلام، فقلت: يارسول الله لا أرجع اليهم أبداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البُرُد ، ولكن ارجع ، فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع » ، قال : فذهبت ، ثم اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت)[2] • فأين هذا مما

(١) المستدرك ، الحاكم النيسابوري : ٢٧٨/٣ . كذلك : حياة الصحابة : ٢٦٩/١ ــ ٢٧٠ ؛ الاستيعاب : ٨٩٦/٣ . متنضلين: مفتخرين ، الملأ : جمع ملاءة : نوع من الثياب . المزعفرة : مصبوغة بالزعفران .

(٢) جامع الاصول : ٦٥٢/٢ . وابو رافع هذا هو : اسلم مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قبطيا . الاستيعاب : ١٦٥٦/٤ ؛ سير اعلام النبلاء : ٨/٢ . وهو ضرب أبا لهب ←

فعلته قريش وغيرها في معسكر الكفار والمشركين في كل تاريخهم وعلى اختلاف انتماءاتهم ؟! في حين سار المسلمون دوماً على مثل الوفاء في كل الأحوال وعلى جميع المستويات: حكاماً ومحكومين، جنداً وقادة، فاتحين معمرين لا طغاة متجبرين، والحوادث كثيرة وفيرة مملوءة بها كتب الاصول الاسلامية وامهاتها التي حفظت ووعت حقائق تاريخنا الاسلامي المشرق والتي يجب أن تكون منابع فهمنا للاسلام ودراساتنا وثقافتنا وكتاباتنا الاسلامية، وقبل ذلك معرفتنا لعقيدتنا الاسلامية وفقهنا لاسلامنا ووعينا لشريعتنا

←

(أو بحضوره) ضربة كانت فيها مقتله شر قتلة . الطبقات الكبرى، ابن سعد : ٧٣/٤ ؛ انساب الاشراف، البلاذري : ٤٧٧/١ . اسلم ابو رافع قبل بدر ولم يشهدها لانه كان في مكة، ثم شهد احداً وما بعدها . الاستيعاب، ٨٥/١ . اسلم قبل بدر وكان يكتم اسلامه مع العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وقدم بكتاب قريش الى المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واظهر اسلامه ليقيم بها فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم . حلية الاولياء، أبو نعيم : ١٨٣/١ ــ ١٨٤ (رقم : ٣٣) . وبهذه المناسبة كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق الوارد اعلاه، انظر : المستدرك : ٥٩٨/٣ .

لصياغة حياتنا على أساسها وحدها دوما . ولا بد ان نعتبر ذلك ميزانا لنظرتنا ودراستنا ومواقفنا لكل ما يقع خارج هذه الدائرة.

ولقد كتب القائد المسلم أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة إلى الخليفة عمر بن الخطاب يقول له : إن عبداً أمن أهل بلد بالعراق ، وسأله رأيه . فكتب إليه عمر : « إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا ؛ فوفوا لهم وانصرفوا عنهم»[1] . وذلك لأن كل شيء في الاسلام هو للتنفيذ والتطبيق وحقيقة الشريعة تظهر في سلوك أبنائها . وهذه الحادثة تشير إلى مقدار التضامن والتكافل والتوحد الحقيقي للمجتمع المسلم ؛ إذ أن إعطاء أمان من قبل عبد مسلم تقدم به لأهل بلد ؛ على المسلمين أن يفوا به « فالمسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم »[2] كما في الحديث الشريف .

---

(١) نقلا عن : في ظلال القرآن : ١٢٥/١ . وعن أمثلة أخرى من هذا النوع ، انظر مثلا : جامع الأصول : ٦٥٣/٢ ؛ السيرة النبوية ابن هشام : ٣ ـ ٣٥٤/٤ ؛ تاريخ الطبري : ٤٩٢/٣ ـ ٤٩٣ ؛ الكامل في التاريخ : ٥٤٩/٢ ، ٥٥٣ .

(٢) حديث شريف ، جامع الأصول : ٢٧/٨ .

فأين هذا من تصرفات غير المسلمين كافة ، في موضوع الالتزام بالعهود وخلق الوفاء وغيرها من الأمور الخلقية والفكرية والشعورية والانسانية ، فضلاً عن تكريم الاسلام للانسان في عقيدته وتصوره وضميره وعلاقاته ؟ إنه مختلف سمواً وارتقاءً عن كل ما عداه هبوطاً وتدنياً ، وذلك يتضح بأدنى مقارنة في كل مستوى وفي أية حضارة .

ولقد مرت بعض الأمثلة عند غير المسلمين مع عدة أقوام وانتماءات وفي مناسبات متعددة ومواجهات متنوعة في السلم والحرب ، تمثّل فيها عدم الالتزام بعهد ، وبدا نقض العهد الواضح المشين المخالف لأدنى مستويات الخلق الانساني مهما كان نوعه فضلاً عن مخالفته وبعده الكبير عن أي بقية ولو مشوهة من عقيدة أو دين ادعوا هم الانتماء إليه . ويذكر على سبيل المثال ما جرى في الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي حيث استعمل الصليبيون مع المسلمين كل ألوان الوحشية ضد كل الناس حتى غير المحاربين بل وضد النساء والشيوخ والأطفال ، معتبرين ذلك ديناً أو دفاعاً عن الدين ـ ودين الله من ذلك براء ـ وارتكبوا من

الشنائع والفظائع ماروى بعضه كتاب أوربيون • وكانت تصرفاتهم أحياناً ــ إن لم يكن دوماً ــ تعافها حتى الوحوش ؛ إذ ذبحوا المسلمين في المسجد وأقاموا المذابح في القدس من غير استثناء لأحد لسنّه أو لحاله ، ولم يقم بذلك بعض الجند فقط بل جميعهم وقادتهم وملوكهم في المقدمة • وإن ريكاردوس (قلب الأسد) قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير مسلم استسلموا إليه بعد ما قطع لهم عهداً بحقن دمائهم لكنه استباحهم جميعاً ، وزاد في اقتراف أعمال القتل والسلب ضد المسلمين الآمنين وغيرالمقاتلين بل الكبار المسنين والأطفال غير البالغين[1] • وفي المغرب الاسلامي (الأندلس) ارتكبت الأعمال المماثلة لما جرى في المشرق وزيادة؛ رغم العهود والمعاهدات الموقعة والتي أُكد توقيعها وأُقسم عليها ؛ بل وأكدتها أعلى سلطات الدولة والكنيسة وأحياناً السلطة البابوية، ومع ذلك كان أول شيء عملوه هو نقض كل ذلك والاستهانة بأي خلق ومثل • والأمثلة كثيرة ومتكررة بل هي التي عرفناها عنهم دون غيرها ، وكأن ذلك أصبح هدفاً لهم يسعون إليه

(١) حضارة العرب ، لوبون .

ويحرصون على تحقيقه ويجهدون في الوصول إليه [1] ، وما محاكم التفتيش في الأندلس بسرّ .

ويستوي في ذلك غير المسلمين منذ تاريخ الاسلام الأول وحتى امتداده الملحوظ في جناحي العالم الاسلامي شرقيه وغربيه . ولقد رأينا سوء تصرف غير المسلمين حتى مع المسلمين الذين بادأوا الأقوام بحسن المعاملة ونظافة السيرة وطهر المسلك وهم في موقع الغلبة والقوة وذلك ديدنهم وليس عليهم بغريب ، فما رأوا من غير المسلمين إلا سوء المعاملة والخلف في الوعود وإخفار الذمة وخيسان العهود؛ وهذا ديدن هؤلاء وهو ليس عليهم بغريب وكل منفق مما عنده ولكن أين الثرى من الثريا ؟ ولله تعالى المثل الأعلى سبحان الله رب العالمين .

---

(١) التاريخ الاندلسي : ٥٧٤ ــ ٥٧٨ .

ثانيًا: الجانب العلمي والثقافي

كثر الانتاج الاسلامي واتسع في هذا الجانب المتعلق بالثقافة والمعرفة والعلوم • ولا تتعرض هذه السطور لدراسة فروع المعرفة وألوان الثقافة والانتاج العلمي ؛ وإنما تعتني ببعض جوانبه وظواهره ومعالمه التي تقدم لنا صورة ، مهما كانت سريعة وعابرة ومختصرة ، فهي تفصح عن نوعية تلك الثقافة وتعدد ميادينها وسبر غورها واستجلاء آفاقها في شمول واسع ، وتبين مستواها وأصالتها ؛ مستندة في ذلك على أسس وقواعد نشأت في ذلك الجو العلمي الذي أوجده الاسلام وعاشه مجتمعه المسلم • وتمثل الثقافة الاسلامية والعلوم المتنوعة التي نمت عند المسلمين جانباً واسعاً شمل كل الميادين التي كانت معروفة ،شذبتها ووجهتها وتقدمت بها في منهجها الخيّر وطريقها الفاضل ثم أوجدت ميادين جديدة قدمت فيها ثمرة كبيرة • أما وجود بعض الانتاج الفج أو الهزيل فشاذ ودخيل ؛ وهو معروف بتهافته

وهو لا يمثل الثقافة الاسلامية الحقة عنـد المسلمين ولا يعطي اية صورة تمثل خط هذا الجانب لديهم فهو قـد اقتحم عليهم مؤلفاتهم وحشر في كتبهم. ولكن هذا الانتاج الشاذ ــ للأسف ــ نراه يقوم أحياناً دون غيره في كثير من معاهد التعليم على أنه الصورة الحقيقية للانتاج الثقـافي الاسلامي . بـل إن هنـاك أفكاراً لا تنسجم مـع الاتجـاه الاسلامي وهي معروفـة ولكنهـا وَجَدت الاهتمـام والعنايـة مـع التضخيم فقلبت الحقـائق وعكست المفاهيم ! فمثـلاً ندرس شخصيات علمية وأدبيـة وآراء فلسفية معينة وجوانب علمية أو أفكاراً ليست هي أهـم ما توفر في ذلك الميدان ولكنه شاذ ، فكان هناك اختيار في الجانب والموضوع واختيار في طريقة العرض صاحبه إهمـال لجوانب وموضوعات وإخفاء لأسس ومقومات معينة هي التي صاغت تلك المعرفة ولولاها ما كانت ، فطمست لها صفات وغيبت منها سمات.

ولا بد لأية دراسة علمية ، تتناول هذا الموضوع ، مـن الحرص ــ بصورة رئيسية ــ على أمور منها :

١ ــ أن يدرس الجانب الثقافي ضمن الاطار الذي وجد

فيه والجو الذي أنبته وهيأ له أسباب النمو والإثمـار في تلك الظلال التي عاش فيها وأنتج ؛ وذلك هو الجو الذي هيأه الاسلام لمجتمعه فكان من ثماره عموم هذا الانتاج الثقافي . ولهذا السبب فلا تقتصر أصالة الثقافة الاسلامية على بلد اسلامي معين بل هي عامة في بلدان العالم الاسلامي بجناحيه ، ونجد لذلك الشواهد الكثيرة ، وهذا الوضع موفور في كل العصور .

وإن هؤلاء الذين أنتجوا هذه العلوم لم يكونوا منعزلين عن الناس عاكفين على أوراقهم منصرفين للتأليف ؛ بل كانوا يتولون أعمالاً ويقومون بمهام لأنفسهم ولمجتمعهم ، يدرّسون ويشتركون في الأحـداث ويخالطون الناس في شؤونهم الأخرى وهم منهم وإليهم قريبون .

وتملك الأمة الاسلامية وحضارتها عدداً وفيراً من الأعلام في كل ميدان من الرجال والنساء أثروا المكتبة الاسلامية . فأبو جعفر محمد بن جرير الطبري (آمل ، طبرستان ، ٢٢٤ ـ بغداد ، شوال ٣١٠ هـ) من العلماء المعروفين بكثرة التأليف ، وقد تصدى للتدريس ومارس أنواعاً أخرى من النشاط . وتذكر له المراجـع

مؤلفات كثيرة ، يستغرق بعضها عدداً من الأجزاء . وقد اشتهر الطبري بتفسيره وتاريخه ، وله مؤلفات أخرى ذكرها الذين ترجموا له[1] .

كان علماء المسلمين يبتغون في عملهم العلمي ـ بكل ألوانه ـ وجه الله ورضاه ، وخدمة المسلمين. وهكذا يجب أن يكون المسلم في كل شؤونه وأعماله، والأمثلة على ذلك متوافرة متكاثرة . من ذلك ما يروى عن العالم اللغوي «المذكور بالديانة والعفة والورع[2] أبي غالب المعروف بابن التياني (٤٣٦ هـ) أنه صنف كتاباً جليلاً في مدينة مرسية بالأندلس ؛ ولما علم أميرها أبو الجيش مجاهد العامري أرسل إلى ابن التياني ألف دينار أندلسي مع كسوة على أن يزيد في الكتاب عبارة : « مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد » لكن هذا العالم رد الدنانير والكسوة وقال :

« كتاب صنفته لله ولطلبة العلم أصرفه إلى اسم ملك ! هذا

---

(١) وفيات الأعيان : ١٩١/٤ .

(٢) المغرب في حلى المغرب : ١٦٦/١ .

والله مالا يكون أبـداً »(١) • وبذلك زاد التياني في عين مجاهد وعظم في صدور الناس •

ومن علماء المسلمين المكثرين في التأليف ــ وهم كثير ــ الحافظ شمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ) الذي بلغت مؤلفاته قرابة المئة ، بعضها مطبوع ويقع في عشرين جزءاً • ومن هؤلاء ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) الذي أحصى ابنه مؤلفاته فبلغت أربعمائة مجلد (٢) فُقد أكثرها • بـل إن بعض المؤلفين وصلت مؤلفاتهم أو أجزاؤها إلى خمسمائة بين صغير وكبير مثل القاضي الفقيه أبي المطرّف عبد الرحمن بن فُطَيْس (٤٠٢ هـ) (٣) • كما أن بعض الكتب وصلت أجزاؤها العشرات من ذلك « تفسير القرآن » تأليف الحافظ بقي بن مَخْلَد (٢٧٦ هـ) (٤) • وقد وصف ابن حزم هذا التفسير « أنه لم يؤلف في الاسلام تفسير

---

(١) راجع : أضواء على التراث والحضارة .

(٢) أندلسيات : ١٢٢/١ .

(٣) الصلة ، ابن بشكوال : ٣١١ ــ ٣١٢ .

(٤) راجع : نفح الطيب ، المقري : ٤٧/٢ ، ٥١٨ .

مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره » [1] . ولكن للأسف لا نعرف لهذا المؤلف مكاناً . ومثل ذلك يقال في تفسير القاضي أبي بكر بن العربي الاشبيلي (٥٤٣ هـ) المسمى « أنوار الفجر في تفسير القرآن » الذي يذكر أنه يقع في ثمانين جزءاً أو أكثر [2] . علماً أن مؤلفات ابن العربي تزيد على الثلاثين .

إن مثل هذه الأخبار متوافرة ، حيث كانت العناية بالكتب كبيرة وعموم الناس يتبارون باقتنائها ، فكانت مصدر فخر . ومن فاته أن يؤلف أو يكتب لم يفته أن يكون صاحب مكتبة يزين بها داره ينفع بها نفسه وأهله ومجتمعه ، ولذلك كان العالم الاسلامي ــ ومنه الأندلس موضوع الشواهد ــ مزدهراً بالمكتبات الخاصة [3] .

٢ ــ جعل الاسلام طلب العلم فرضاً وشجع الأخذ بأسبابه

---

(١) نفح الطيب ، المقري : ١٦٨/٣ .

(٢) نفح الطيب : ٣٥/٢ .

(٣) راجع : بحث الكتب والمكتبات في الأندلس ، المنشور في مجلة كلية الدراسات الاسلامية : ٣٧٠/٤ وبعدها (بغداد ، ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢ م) .

والسعي له بكل صورة نافعة ؛ فورد عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك »[1] . فأصبح العلم عند المسلمين ـ خلال العصور ـ وطلبه والعناية به والعمل على إشاعته والانتفاع به وتطبيقه سنة درجوا عليها بدافع من عقيدتهم ـ وهو جزء منها ـ وكان ذلك للانتفاع به وإقامة المجتمع القوي المتكامل . وأية ظاهرة غير هذه تعتبر شاذة وليست أصيلة ، وربما كانت تنيجة لظروف معينة أو نقولاً عن أمم أخرى واتباعاً لأسلوب غير مرغوب فيه . على حين نجد ـ لسبب وآخر ـ توفر الاهتمام حالياً بهذه الجوانب التي تعتبر جزئية أو غير ذات صلة وثقى بالانتاج الاسلامي ولا تمثل من الثقافة الاسلامية إلا ناحية فرعية أو زاوية ليست ذات نفع !! ولقد استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم من كل « علم لا ينفع »[2] .

---

(١) حديث شريف ، رواه الطبراني والبزار ورجاله موثقون .

(٢) من حديث شريف ، انظر : جامع الأصول في أحاديث الرسول ، ٣٥٥/٤ .

وبهذا تعتبر العلوم والمعارف التي تدرس في كثير من مناطق العالم الاسلامي حالياً جزئية ومشوهة • فالثقافة الاسلامية شاملة لكل الميادين ، ولدينا فيها اتناج تتمثل فيه الأصالة وأعلام يمتازون بالعمق • ولقد وجد في هذه الحضارة الاسلامية أعلام يمكن أن نسميهم بالموسوعيين ، حيث كتب كل منهم في عدة ميادين وعرفوا بسعة الثقافـة •

٣ ـ اتساع ظاهرة الثقافة في الحضارة الاسلامية قضيـة شديدة الوضوح لأنهـا شملت كل النـاس • واعتنى المسلمون بالتأليف والترجمة وكان مستوى التأليف رفيعـاً ونال التقدير والعناية وازدادت الرغبة في طلب العلم واتسعت ، لأنهـا فريضة المسلمين ، فلا يمكن أن نتصور وجود الجهـل أو توفره حيث يكون الاسلام • ثم إن الذين يقودون المسلمين علماء يحرصون أن يتعلموا ـ وغدا ذلك اتجاهـاً وأساساً قام عليـه المجتمع الاسلامي ـ يقومون بـه تقرباً إلى الله ويسعون مـن أجله ، خدمة لدينه وللمجتمع • ولذلك وجدت في العالـم الاسلامي ـ خلال عصوره ـ مميزات معينة للعلم والعلماء وكذلك للتربية

واهتماماتها وقدرها ، كما كان للثقافة والمؤسسات العلمية مكانها الواضح في هذا الجانب •

وليس يقصد بهذا الاتساع معرفة القراءة والكتابة ، فهذه أساسيات متوافرة ، ولا غرابة أن انعدمت أو كادت أمية القراءة والكتابة في بلدان العالم الاسلامي في أي مقدار منها خلال عصور الاسلام الزاهرة المشرقة • ولكن المهم شيوع المعرفـة والعلم وشموله لكثرة كاثرة غالبة غامرة ودائرة على العلم والفقه وسعة الأفق والاهتمام به والتعرف عليـه وعلى آفاقه الرحبة المضيئة • كما نجد كثرة من أهل العلم وأساتذته وأعلامه والعاملين فيـه ــ تدريساً وتأليفاً ، بشمول وكثرة ــ لا نجدها في تاريخ أية أمة •

واغتنت المكتبة الاسلامية غناءً يعز بلوغه ولا ينـال قربه ولا تمكن مباراته ، وليس للاكتناز بـل للبنـاء ونفع المجتمع والانتفاع بـه ، فكانت هناك رغبـة غامرة متجددة لا تتوقف ولا تنضب في تلقي العلم وبذله ، بحرص شديد ، لأن هذا كله جزء مـن العقيدة الاسلامية وواجبات المسلم • وكم مـن عالم كان يدرس بدون أجر ، ابتغاء وجه الله تعالى ، ولدينا أخبار عن كثير

من العلماء كانوا يعملون عملاً يكون مورداً لمعيشتهم ولايقومون بالتعليم كمصدر عيش لهم . ولقد ذكر أحد تلامذة العالم الفقيه أبي الوليد الباجي (الأندلسي ٤٧٤ هـ) أنه « كان يخرج إلينا للإقراء ، وفي يده أثر المطرقة »[١] .

فامتلأت وطفحت ربوع العالم الاسلامي بفيض غامر من الانتاج ، يسعى الناس له ، رحلة وسهراً وصبراً ، يتفردون به على الدوام ، لا يملون ولا يكلون وما يكادون يشبعون ، فهم منهومون ، كما جاء الوصف في الحديث الشريف على قائله الصلاة والسلام .

ومن جميل الظواهر في هذا الباب قوة وطرافة ، أن كل ذلك كان يجري والتعليم حر يقوم به الناس قبل الدولة ، والمدارس الرسمية قليلة . فغدا العلم ــ طلبه وتعليمه ورعايته ــ طبيعة وسمة أقامتها العقيدة الاسلامية ، وتلك واحدة من ثمارها .

والمرجو أن تقوم دراسة تتولى كل ذلك بوضعها الطبيعي ، تقوم على الصدق والامانة والورع ، دقة واصالة ورؤية واقعية

---

(١) التاريخ الأندلسي : ٣٤٠ .

في جو الحق والحقيقة ، لتظهر خبايا هذا الأمر وخفاياه التي طالما عبثت بها أهواء الجهلة والمغرضـين • وخـير مـن يقوم بذلك المتخصصون الصابرون المؤمنون الذين يجدون في ذلك لذتهـم ويعتبرون عملهم جهاداً في سبيل الله تعالى •

واستجلاء هذه المواصفات المتفردة في الحضارة الاسلامية بعد ذلك ليس صعباً ، والحق أن ذلك ملحوظ مركوز ومغروس في بنية المجتمع المسلم وميزة له ولأمته الاسلامية ، مهما كان رقيه المادي والعمراني ـــ الذي ليس له القول الفصل فيه ـــ والذي يسخر دوماً لخدمة هذا الدين ويسير في اطاره [صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ❋] •

ثالثًا: الجانب القضائي

القضاء أحد الجوانب المهمة والخطط الجميلة الجليلة في الحضارة الاسلامية وفي حياة المسلمين على الدوام ، وللأسف فقد جرى حسره وحصره ليتم إلغاؤه وإنهاؤه من حياتهم ، وكان جانباً شاملاً متكاملاً وشمساً مشرقة وصباحاً مسفراً • ومع ذلك فلم ينل هذا الموضوع والى الآن حقه من البحث العلمي الجاد الذي يقوم على الدراسة الأصيلة المستندة إلى واقع تاريخه وحقائقه ، صورة عملية للتشريع ومنبثقة عنه •

وُجد القضاء منذ أوحى الله تعالى الاسلام إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل آياته الكريمة في قرآنه المجيد ، لاسيما حين غدت الدولة الاسلامية الأولى كياناً سياسياً واجتماعياً واضحاً بُعيد الهجرة النبوية الشريفة • وقام بالقضاء ـ مدة النبوة ـ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم • وكان طبيعياً أن يفصل بين الناس في أمورهم على هدي القرآن الكريم وبما يوحيه الله تعالى

إليه • والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الأساس المكين في هذا الأمر وغيره في الحياة الاسلامية خلال عصورها • وجرى اجتهاد المسلمين فيما يجدّ لهم ضمن هذا الاطار •

ولقد طفحت صفحات التاريخ الاسلامي بقضاة لهم اجتهاداتهم ومواقفهم القضائية ، وبدقتهم وتحريهم للحق وشعورهم بالمسؤولية ، مع قابلية في الابداع وعبقرية في الفهم وتمسك بالوسائل التي تصون الحق وتصدع به وتظهر حقيقة الأمر ، وهي لا تخشى في الله لومة لائم ولا قوة غاشم ولا بطش جائر ظالم •

وتهيأت للقضاء في عموم الدول والمجتمعات الاسلامية المكانة الجيدة والاحترام الفائق من قبل الجميع فخضعوا لحكمه ورضخوا لأمره مهما كانت مكانتهم ومناصبهم ، حتى رجال الدولة والسلطان[1] •

وللقاضي شروط معلومة ، ليس المستوى العلمي إلا واحداً

---

(١) انظر مثلا للمؤلف : التاريخ الأندلسي : ٤٤٦ ، ٥٧٥ •

منها ، مع ورع القاضي وتقواه واستقامته وخضوعه للشرع وعدم الخوف في الحق بل الخضوع لله ، وذلك ما درج عليه القضاء من بداية نشأته ، وهي أمور مقدمة على غيرها في تولي هذا المنصب واشغال هذه المكانة .

ومن أوائل القضاة ـ أيام الراشدين ـ شريح بن حارث الكندي (٧٨ هـ) ، الذي عمر مئة سنة أو يزيد وشغل القضاء في الكوفة نحو ٦٠ سنة : من سنة ١٨ هـ في خلافة عمر بن الخطاب حتى سنة ٧٧ هـ [١] أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) .

ولدينا كتب خصصت حديثها عن القضاء والقضاة مثل : « الولاة والقضاة » لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري و « أخبار القضاة » لوكيع محمد بن خلف بن حيان (٣٠٦هـ) و « قضاة قرطبة » للخشني (٣٦١ هـ) و « المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا »لأبي الحسن النباهي الأندلسي (٧٩٣هـ). علماً أن بعض كتب القضاء لا سيما الأندلسية منها تعتبر حتى الآن مفقودة كما هو الحال في كتب ذات موضوعات أخرى .

---

(١) العبر في خبر من غبر ، الذهبي : ١/٨٩ .

ونلحظ أن بعض مؤلفي هذه الكتب هم أنفسهم من القضاة وهذا يضيف بعداً آخر في مكانة هذه المصادر . ولدينا نُقول من بعض ما فقد من الكتب المتعلقة بهذا الموضوع . والأمل ــ إن شاء الله ــ أن يكشف شيء منها ، وهذه مسألة ذات أهمية إذ أن في العثور عليها إثراءً لهذه الدراسة وأساساً لإنتاج جديد .

ومن بعض الكتب المفقودة المتعلقة بالقضاء عن الأندلس كتاب « انتخاب من أخبار القضاة » لابن حيان القرطبي(٤٦٩هـ) وكتاب عن القضاة لأبي عبد الملك بن عبدالبر (٣٣٨هـ)وغيرها[١].

وممن انتفع بهذه الكتب وغيرها فأوصل إلينا بعض هذه النصوص ابن سعيد الأندلسي (٦٨٥ هـ) في كتابه « المغرب في حلى المغرب » وابن الآبار (٦٥٨ هـ) في كتابه «الحلة السيراء».

ونجد دراسة عامة مفيدة في «مقدمة ابن خلدون » عن خطة القضاء وما يتبعها من خطط أخرى[٢] .

---

(١) راجع بحث : « القضاء ودراسته في الأندلس » في مجلة كلية الامام الأعظم ، العدد الأول : ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) ، بغداد .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٢/٧٣٤ ــ ٧٣٧ .

وهناك ــ بجانب بعض المؤلفات عن القضـــاء والقضاة ــ أخبار متناثرة عن القضاء • وتعتني كتب التراجم بالقضاة وأخبارهم، مثل : « الطبقات الكبرى » لابن سعد (٢٣٠ هـ) و « المقتبس في أخبار بلد الأندلس » لابن حيان القرطبي (٤٦٩ هـ) و«الصلة» لابن شكوال الأندلسي (٥٧٨ هـ) و « بغية الملتمس » لابن عميرة الضبي الأندلسي (٥٩٩ هـ) و « التكملـــة لكتابي الموصول والصلة » لابن الآبار الأندلسي (٦٥٨ هـ) و « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٦٨١ هـ) و « سير أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي (٧٤٨ هـ) و « الوافي بالوفيات » للصفدي (٧٦٤ هـ) و « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » لأبي العباس المقري التلمساني (١٠٤١ هـ) • فهذه الكتب العامة وأمثالها تتحدث عن القضاة وغيرهم من الأعلام •

ولدينا ثبت طويل قيّم بأسماء القضاة ، لكن الأمر بحاجة إلى دراسة علمية جادة مستعدة للتتبع وتحمل العمـــل المضني • فموضوع القضاء في العالم الاسلامي ما زال بحاجة إلى عنايـــة ودراسة • ومهما كانت المعلومات عنه قليلة ومتناثرة في عديد مـــن

المصادر التي وصلتنا ففيها مادة تكفي ــ ولو إلى حد ــ لعرض الموضوع بشكل يتناسب وأهميته ، ولا بد ــ خلال دراسة هذا الموضوع بحثاً وتأليفاً ــ من ملاحظة اعتبارات عديدة ، منها :

١ ــ النظر إلى القضاء ضمن طبيعة المجتمع الاسلامي وعلى الأسس التي قام عليها وكانت سبباً في تلك النصاعة والمكانة التي وضع فيها ، وتجلية الصورة الكريمة التي رسمها خلال التاريخ وفي بلدان العالم الاسلامي كافة وفي كل الظروف •

٢ ــ أن تتناول هذه الدراسة القضاء أصلاً قام عليه سلوك لمسه الناس •

٣ ــ الحديث عن رجال القضاء ومواقفهم وموقف المجتمع منه والمسؤولين • ولا بد من دراسة نماذج من القضاة واحوال التقاضي في مختلف العصور والديار الاسلامية المتعددة • وعلى سبيل المثال جرى ذكر القاضي شريح الكندي الذي تولى القضاء مدة ستين سنة في الكوفة ، ولهذا مدلول ذو اهمية يتوجب بيانها خلال تناول هذا الموضوع •

فدراسة القضاء اذاً يجب أن تقوم على أساس انه منهج

وشخصيات تشربت هذا المنهج وتحركت في ضوئه بدون تكلف ، اذ غدا ذلك لديها طبيعة رباها عليها هذا المنهج الاسلامي ، وعلى انه احداث مرتبطة بأصول الشريعة .

٤ — يتوجب على هذه الدراسة العناية بمهام اخرى تنبثق من القضاء وذات صلة أو علاقة بــه وان لم يكن يمارسها قاض تمثلت فيه كل شروط القضاء ، بل يمارسها من يكون كنائب عن القاضي أو ممثلاً له ؛ مثــل : النظر في المظالم أو الاعمال التي يتولاها صاحب الشرطة أو الحسبة في مجــال الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وامور اخرى تتعلق بذلك .

٥ — ويقتضي بيان مكانة القضاء وامتيازه في كل جوانبه عن القضاء في الامم الاخرى ، في صدقه وأصالته وفي ارتباطه ونزاهته وفي اصوله وانسانيته وفي التزامه بالحق وتجرده له ، والسير في إطاره العام الذي لا يتعداه .

٦ — وحين دراستنا للقضاء سنلحظ أموراً متعلقة بالمنهج ورجاله وطريقة اختيار القضاة وصفاتهم وسلوكهم وامثلة من حياتهم القضائية تسترعي الاتنباه وتستحق الاهتمام .

* * *

يتمتع القضاء في الاسلام بالحصانة والاستقلال • ولا بد من ايضاح نقطة مهمة هي ان هذه الصفات كانت متوافرة في ظل كافة الظروف ، الأمر الذي يشير الى قوة خاصـــة في التشريع الاسلامي ومجتمعه ورجال القضاء أنفسهم ، تحفظ لهم استقلال القضاء ومكانته حتى في تلك الظروف التي يكون فيها جوانب من الضعف أو شيء من التهاون لدى بعض المسؤولين أوقات الهبوط • ولقد كان القضاء دوما مستقلا وكان ذلك في بعض الاقطـــار أظهر ، وليس استقلاله ، سلطة كاملة فقط ، وانما الاستقلال في داخل سلطة القضاء • من ذلك ما يبدو في الاندلس ، حيث القضاء في الاقاليم والكور ، فكان القضاة يتمتعون باستقلال ــ الى أية درجة ــ عن السلطة القضائية الرئيسية التي يسمى رئيسها عادة بقاضي القضاة ويعرف في الاندلس بقاضي الجماعة بقرطبة • وهذا يفيد في معرفة سلطات قاضي الجماعة وان سلطانه القضائي المباشر محصور في قرطبة العاصمة ، وهذا لا يمنع ان تكون كلمته نافذة ولها تأثيرها في الاقاليم والكور الاندلسية •

٧ ــ ودراسة امثلة للقضاء مهمة وهي كثيرة جدا ، وان

كانت هذه الكثرة غير مستوفاة لدينا في المصادر التي وصلت الى أيدينا عبر القرون والاحداث ، لكنها لا تجعل الباحث مقعدا عن المتابعة والدراسة ، اذ لا يعدم ان يجد فيها العون لبناء دراسة شاملة ونافعة في هذا الموضوع ، وإن كانت لا تخلو من الثغرات .

ونجد في الاندلس ــ ولعله في غيرها ايضا ــ لغير المسلمين قضاءهم الخاص الذي يعودون اليه في الشؤون القضائية ، وهذا يجب ان تتعرض اليه الدراسة ايضا . ويشير هذا الأمر الى عدم تدخل المسلمين في شؤون الاقليات الاخرى الذين يحتكمون الى رجال منهم(١) ، وان كان هذا الأمر لا يمنع ان يكون للسلطة الاسلامية رأي في تعيين القضاة أو الاشراف العام أو بيان بعض المسائل ، من غير ان يكون هنالك اكراه أو تدخل في شؤونهم الخاصة .

وتوفرت عن القضاة في الاندلس ــ مثل غيرها ــ النماذج والامثلة الكثيرة ، وفي كتب التراجم ــ وقد مر ذكر بعضها ــ امثلة كثيرة . ونذكر على سبيل الاستشهاد بعض الاسماء :

---

(١) أندلسيات : ٢/٢٥ .

منذر بن سعيد البلوطي (٣٥٥هـ) قاضي الجماعة بقرطبة ايام الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر .

محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بأبي الوليد بن رشد (٥٢٠هـ) قاضي الجماعة بقرطبة ايام المرابطين ، وهو جد ابن رشد الفيلسوف (٥٩٥هـ) .

أبو بكر بن العربي (٥٤٣ هـ) القاضي الاشبيلي أيام المرابطين والموحدين .

هذه بعض صور القضاء في الاسلام واحواله ومتطلباته ، ندعو الله تعالى ان يخدم الدارسون هذا الجانب وغيره من الحضارة الاسلامية ويجري العمل على إعطائها حقها وتوفية قدرها ، في عين الوقت الذي تستجلي هذه الدراسة جوانب الحضارة الربانية الفريدة المشرقة وميادين الدراسات الأخرى فتجني ثماراً طيبة ينتجها هذا الدين الذي انزله الله رحمة للعالمين . وهذا من أهداف الدراسة لبعث حياة متجددة متحركة تعمل على احياء النفوس والمشاركة في البعث الاسلامي الكبير المرتقب

القريب بعون الله تعالى . الأمل كبير والرغبـة متلهفة متطلعـة والنفس مؤمنة والحياة مشرأبة ترنو في الأفق مهما أظلم الليـل وادلهم أو طال الانتظار وتوالت الاخطار ، فوعد الله كائن فلا بد أن تنقشع الظلمـاء ، فيتنفس الصبح بلطف الله وحكمته وعدله ووعده ونعمته « والله متم نوره ولو كره الكافرون ❊ » .

وبذلك يبتدىء دولاب الحياة بالحركة الخيِّرة الفعالة فيعطي الاسلام للبشرية ــ فيما يعطي في الدنيا والاخرة ــ حضارة من جديد ، ثمرة لقيام مجتمعه ودولته ، فترتفع ألويته ويجود بالبر والخير في الدنيا ويورث النعيم في الآخرة عند الله « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم ❊ » .

والحمد لله رب العـالمين وصلى الله وسلـم وبارك على رسوله الكريم .

* * *

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	مباديء لفهم التراث	محمد ابراهيم الشيباني
٢	المخطوطات العربية وأماكن وجودها	محمد ابراهيم الشيباني
٣	مخطوطات المنتظم وأماكن وجودها	محمد ابراهيم الشيباني
٤	وصايا ونصائح لطالب العلم	ابن الجوزى
٥	المؤمل في الرد الى الأمر الأول	أبو شامه المقدس تحقيق مقبول
٦	زغل العلم	للذهبي تحقيق محمد العجمي
٧	متى يا شروق	مجموعة قصصية تأليف نوري الوتار
٨	تنظيم الأوقات في الاسلام	أحمد باقر العبد الله
٩	الفتن في الآثار والسنن	جزاع الشمرى
١٠	نظرات في الفكر الماركسي	أحمد باقر العبد الله
١١	عذاب الدنيا	أحمد باقر العبد الله
١٢	المقاصد العامة للشريعة	الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق
١٣	أطفالنا والقرآن	الشيخ حمود الحطاب
١٤	قلم وفكر	عبد الله الخطيب
١٥	معرفة الخصال المفكرة للذنوب والمقدمة والمؤخرة	العسقلاني تحقيق جاسم الدوسري
١٦	انهم يهدمون الاسلام	ياسر عبد الله
١٧	شجاعة السلف	حاى سالم الحاى
١٨	دليل الطالب الى جامعات العالم	حسين عبد الجليل
١٩	القول المنعوت بتفصيل البسملة والقنوت	ناصر بن لازم
٢٠	تأملات في الصيام	حسين عبد الجليل
٢١	مجموعة قصصية ـ النساء في القرآن ١ ـ ١٠	عبد المنعم الهاشمي
٢٢	كيف تقرأ القرآن الكريم	محمود قاسم الشوم
٢٣	نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي	الدكتور عبد الرحمن الحجى
٢٤	جوانب من الحضارة الاسلامية	الدكتور عبد الرحمن علي الحجى

تحت الطبع

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	الصحابي القائم الصائم عبدالله ابن عمرو بن العاص	تأليف د / عبد المنعم نجم
٢	شحذ الأسنه في الدفاع عن السنة	تأليف د / عبد المنعم نجم
٣	الحضارة الاسلامية	عبد الرحمن الحجي

المراجع

في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الجزء الاول .

جامع الاصول في احاديث الرسول ، ابن الاثير ، طبعة دمشق ، تحقيق الارناؤوط ، الاجزاء : ٢ ، ٤ ، ٨ .

رياض الصالحين ، النووي .

فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر ، الجزء الثاني .

مختصر صحيح مسلم ، تحقيق الالباني ، الجزء الثاني .

المستدرك ، الحاكم النيسابوري ، الجزء الثالث .

الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، ابن عبد البر ، تحقيق البجاوي ، أربعة اجزاء .

امتاع الاسماع ، المقريزي ، الجزء الاول .

اندلسيات (١ ــ ٢) ، للمؤلف .

انساب الاشراف ، البلاذري ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، الجزء الاول .

التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة ، للمؤلف .

تاريخ فتوح الشام ، البلاذري •

تاريخ الطبري ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، الجزء الثالث •

حيـــاة الصحابة ، محمد يوسف الكاندهلوي ، طبعة دمشق ، الجزء الاول •

حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر •

حلية الاولياء ، أبو نعيم ، الجزء الاول •

سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، الجزء الثاني •

السيرة النبوية ، ابن هشام ، الجزآن ٣ ــ ٤ •

الصلة ، ابن بشكوال ، طبعة القاهرة •

الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، الجزآن ١ ــ ٤ •

العبر ، ابن خلدون ، الجزء الرابع •

العبر ، الذهبي ، الجزء الاول •

العلاقات الدبلوماسية بين الاندلس وأوربا الغربية (بالانجليزية)، للمؤلف •

القضاء ودراسته في الاندلس ، بحث للمؤلف منشور في مجلة كلية الامام الاعظم (بغداد) ، العدد الاول •

الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ، الجزء الثاني •

الكتب والمكتبات في الاندلس ، بحث للمؤلف منشور في مجلة كلية الدراسات الاسلامية (بغداد) ، العدد الرابع .

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، جمع واعداد الدكتور محمد حميد الله .

المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد الاندلسي ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، الجزء الاول .

مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، الجزء الثاني .

من روائع حضارتنا ، الدكتور مصطفى السباعي .

نفح الطيب ، المقري ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، الاجزاء ١ ــ ٣ .

وفيات الاعيان ، ابن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، الجزء الرابع .

للمؤلّف

١ ـ تحقيق ودراسة لسفر من كتاب **المقتبس في اخبار بلد الأندلس** للمؤرخ الكبير ابن حيّان القرطبي (٣٧٧ ـ ٤٦٩ هـ): بيروت ، ١٩٦٥ . يتحدث هذا الجزء من **المقتبس** عن خمس سنوات (٣٦٠ ـ ٣٦٤ هـ = ٩٧٠ ـ ٩٧٤ م) من أيام الحكَم الثاني ، المستنصر بالله (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ = ٩٦١ ـ ٩٧٦ م) .

Critcial edition of « Al-MUQTABIS FI AKHBAR BALAD AL-ANDALUS », by Ibn Hayyan (d. 469 = 1076), Beirut, 1965. This volume, of « AL-MUQTABIS », descusses almost five years (360 - 4 = 970 - 4) of the Riegn of al - Hakam II (350 - 66 = 961 - 76).

٢ ـ تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوربا من كتاب **المسالك والممالك** للجغرافي الأندلسي الكبير أبي عُبيد البكري (عبد الله بن عبد العزيز ، ٤٠٥ ـ ٤٨٧ هـ) : ظهر هذا النص تحت عنوان **جغرافية الأندلس واوربا** ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨ م) .

Critical edition of « THE GEOGKRAPHY OF AL-ANDALUS AND EUROPE », from the Book « AL - MASALIK WAL - MAMALIK » by Abu Ubayad al - Bakri (d. 487 = 1094).

٣ ــ **اندلسيات** : المجموعة الأولى ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م)؛ المجموعة الثانية ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) . وتضم بحوثاً ومقالات غالبيتها في التاريخ الأندلسي .

٤ ــ **نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي** : الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) ؛ الطبعة الثانية ، دمشق ، ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) ؛ الطبعة الثالثة : دمشق ، ١٣٩٩ هـ .

٥ ــ **الحضارة الاسلامية في الأندلس** : بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩م).

٦ ــ **تاريخ الموسيقى الأندلسية** : بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

٧ ــ الدكتوراه (بالانجليزية) عن : « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وأوربا الغربية حتى نهاية الخلافة » :

ANDALUSIAN DIPLOMAIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE DURING THE UMAYAYD, PERUT, 1390 (1970).

٨ ــ **التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة** : ٩٢ ــ ٨٩٧ هـ (٧١١ ــ ١٤٩٢ م) ، دمشق ، ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .

٩ ــ جوانب من الحضارة الاسلامية : دمشق ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

١٠ ــ مع الأندلس .. لقاء ودعاء : دمشق ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) .

١١ ــ بحث بالانجليزية :

« Intemarriage betwen Andalusia and Nothern Spain in the Umayyad period », THE ISLAMIC QUARTERLY, London, Vol. XI, Nos, 1 – 2, 1387 (1966).

نشر بالعربية ضمن المجموعة الأولى من اندلسيات .

١٢ ــ نقد (Review) بالانجليزية ، لكتاب :

AHISTORY OF ISLAMIC SPAIN, W. Montgomery Watt (Islamic Survy 4), EUP., 1965· In « THE ISLAMIC QUARTERLY » , Vol. X, Nos, 3 – 4, 1386 (1966).

نشر (النقد) باللغة العربية ضمن المجموعة الأولى من أندلسيات .

١٣ ــ بحث بالانجليزية يتناول جانباً من شخصية الرحالة الأندلسي (ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطَرطوشي) :

« At - Turtushi The Andalusian travller, and his Meeting with Pope John XII,» THE ISLAMIC QUARTERLY, Vol XI, Nos. 3 – 4, 1387 (1967).

نشر باللغة الإيطالية في مجلة :

RIVISTA STORICA ITALIANA, NAPOLI, ANNO LXXIX FASC. 1, 1967, pp. 164 – 73.

١٤ ــ بحث « القضاء ودراسته في الأندلس » : نشر في العدد الأول (١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م) من **مجلة كلية الإمام الأعظم** (بغداد).

١٥ ــ بحث « الكتب والمكتبات في الأندلس » : نشر في العدد الرابع (١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م) من **مجلة كلية الدراسات الإسلامية** (بغداد) .

١٦ ــ بحث « حول التراث والحضارة » : نشر في العدد الخامس (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) من **مجلة كلية الدراسات الإسلامية** (بغداد) .

١٧ ـ بحث « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري » : تحت النشر في **صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد** .

١٨ ـ بحث « ابن زيدون السفير الوسيط » ، كتب لـ « الاحتفال الألفي لولادة ابن زيدون » (٣٩٣ ـ ٤٦٣ هـ) : في الرباط (المغرب) في ١٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٥ . وتقوم بنشره وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية (المغرب) .